الأبعاد الدلالية في رواية اللاز للطاهر وطار

أ/غنية بوضياف
جامعة بسكرة

ملخص

يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على بعض الثغرات الرمزية لدى احد الأدباء الجزائريين البارزين في هذا العصر في مجال الرواية، وهو الروائي(الطاهر و طار).وان يقدم قراءة خاصة لبعض الدلالات الضمنية في روايته (اللاز) .

والتي عبر من خلالها عن وجهة نظره فيما يخص المجتمع و قضاياه الثقافية ، وعلاقة كل ذلك بالتنمية ،ودورها في الثورة التحريرية التي أنهت الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

Résume

Cet article essaye de mettre la lumière sur quelques lacunes symboliques chez l` un des grands auteurs algériens a cet époque dans le domaine de la narration et c est l auteur TAHAR WATTAR,il donne une lecture spécial pour quelques significations implicites dans son Roman" l` as".

Et par laquelle il a donné son point de vue pour ce qui concerne la société et ses problèmes sociaux et la relation de tous avec le développement,et son rôle pendant la guerre de libération qui a mis fin a la colonisation française

لقد كانت الرواية العربية الجزائرية رغم حداثتها مقارنة بالرواية العربية عموما ذات صيت واسع في كل الأقطار العربية، وذلك أنها نمت وترعرعت على أيدي روائيين كبار أعطوا لها دفعا قويا، من أمثال: رشيد بوجدرة، بن هدوقة، واسيني الأعرج، الطاهر وطار.

وهذا الأخير تتمتع جل رواياته بالطابع الرمزي الخلاب الذي يشد القارئ ويبحر به في عالم من التأويلات.

وقد كانت بداية السبعينيات هي المرحلة التي شهدت القفزة الحقيقية للنهوض الروائي الفني في الجزائر.

وتعتبر رواية (اللاز) أول تجربة روائية لوطار صدرت عام 1974 وكانت مصدر إلهام للعديد من الروائيين الجزائريين – بشكل مباشر أو غير مباشر- حيث خطت هذه الرواية أولى خطوات التأصيل الحقيقي للنهوض بالخطاب الروائي الجزائري، وذلك في بحث عن موضوع كلاسيكي رسيم غني بموضوعه التاريخي المعاصر والمحتشد بالشخوص ومختل الدلالات والوقائع الممكنة المحتملة الحدوث، حيث نجد الثورة هي

الهاجس المركزي الذي يشكل فضاء هذه الرواية ويحيل على مرجعية الأحداث، فقد عالج فيها وطار الخلافات والإشكالات التي صاحبت مسيرة الثورة الجزائرية ليخرج لنا هذه الملحمة الروائية التي أعادت النظر في التاريخ بشكل علمي، ووضح لنا المهمة الإيديولوجية التي يولدها الفن الروائي بطريقة رمزية، لذا نحاول في هذه الدراسة الوقوف على بعض الدلالات التي بثها وطار عبر روايته في شكل رموز وأيقونات يستلزم فكها لفهم المعاني الحقيقية التي أخفاها الروائي وراء خطابه.

وقد قسمنا هذه الدلالات إلى أربعة أنواع هي:

الدلالة الإيديولوجية – الدلالة الثقافية – الدلالة الحضارية – الدلالة الإنسانية.

الدلالة الإيديولوجية: ونلمس هذه الدلالة في آراء الشخصيات الروائية ومواقفها كما حركت بقلم الكاتب لتعبر عن إتجاه وأيديولوجيته. وأهم شخصية في هذه الرواية هي شخصية (زيدان) الشيوعي بفكره وسلوكه وواقع عضويته، حتى في اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الجزائري.(1)

والرواية من خلال زيدان ورفاقه تدين القوى التي تريد أن تبرر فعلها الرجعي وتطمح إلى إبادة زيدان لا كشخص ولكن كنظرية ثورية، علمية، وإبدالها بفكر غيبي ذي جوهر رجعي لا يعمل إلا على تكريس التخلف وخدمة الاستعمار. (2)

فزيدان هو الشخصية الوحيدة التي اهتم المؤلف بذكر أصولها الفكرية والأيديولوجية ولا غرابة في هذا الصنيع ما دام زيدان هو الشخصية الأولى الممثلة للعقيدة الشيوعية، وما دام المؤلف يريد أن يجعل من هذه الشخصية نموذجا لوضوح الرؤيا الأيديولوجيا، ومثالا للصمود والتضحية والإخلاص، وقد جعله وطار في هذه الرواية أميا لا يقرأ ولا يكتب، هاجر إلى فرنسا فتعلم الكتابة والقراءة عن طريق الدروس الليلية ومساعدة فتاة فرنسية اسمها "سوزان"، هذه الفتاة التي كانت عينه قفي هذا العالم الأوروبي؛ حيث استطاع بفضلها الدخول للجامعة الشعبية بفرنسا؛ إذ يقول : (إلى أن وجدت نفسي ذات يوم أدرس الاقتصاد السياسي في الجامعة الشعبية، وببساطة وجدتني في حلقة ماركسية ثم في خلية شيوعية إلى جانبها). (3)

ووجود زيدان كما يطرحه وطار ضمن الحركة الوطنية كان يعني بكل بساطة غلق كل الأبواب في وجه الاستعمار والبرجوازية الفرنسية على وجه الخصوص، ومهما يكن من أمر فإن زيدان في نظرنا هو الشخصية الأساسية التي لعبت الدور الأول في أحداث الرواية، ولم يلعب هذا كما يلعبه أي مناضل مؤمن بالثورة فحسب بل لعبه بإعتباره عضوا بارزا في الحزب الشيوعي الجزائري. (4)

وقد بدت شخصية زيدان وكأنها مفصولة عن القوى الدافعة الحقيقية في عصرنا، وبذلك استدل انسجامها مع محيطها، وتحولت إلى مرآة للعجز القاصر عن إدراك حركة الواقع التاريخي في سريانه وتحولاته الكبرى. (5)

ومما زاد من عجز زيدان وارتباكه هو انقسام شخصية إلى شطرين، يمثل الأول وجه الشيوعي الأمي والثاني الوجه الوطني المحلي وهو في كل هذا لا يعرف أن الشعب قد رفض الحزبية بكل تجريداتها الفكرية، كما رفض الطروحات التبريري العاجزة عن اتخاذ القرار الحاسم والانخراط في مشروع الثورة المسلحة. (6)

وزيدان يرى أن من واجبه في هذه المرحلة من النضال أن يعلم بالإضافة إلى الديمقراطية مبدأ آخر من مبادئ الشيوعية، وهو مبدأ التضحية في كل الظروف، التضحية في إطار الأيديولوجية الشيوعية، التضحية التي تعني الفناء من أجل الآخرين. (7)

وقد بدت شخصية مرسومة بمقاسات دقيقة، حيث قدم حياته ثمنا لمبادئه حتى يكون هناك تطابق بين المثل النظرية والممارسة التطبيقية، فظهرت لنا هذه الشخصية أحادية الجانب، تسير وفق فكرة وحيدة لا تحيد عنها و لا تتطور بل تخضع لتخطيط المؤلف الصارم، ولرؤيته الفكرية والسياسية لذا جاءت شخصية زيدان فاقدة لحيوية الحركة والمعاناة والإقناع.(8) حيث كان زيدان كثيرا ما يقارن دور الشيوعي بدور الشمعة فيقول: (الشيوعي والشمعة لا دور لهما إلا الذوبان، الانتهاء والذوبان هكذا) (9)

كما نجد في هذه الرواية شخصية تعبر عن الجناح الرجعي ، وهي شخصية (الشيخ) الذي صوره الكاتب على أنه شخصية رديئة تاريخيا بكل وقاره المفتعل، حيث تقدم هذه الشخصية على نصب كمين لزيدان ورفاقه ويذبحهم واحدا واحدا عندما رفضوا التخلي عن معتقدهم الأيديولوجي وخيانة الحزب الشيوعي الذي كانوا ينتمون له، وهذا ما أدى (باللاز) إلى تكرار تركيبة حفظها عن أبيه وهي (ما يبقى في الواد غير حجاره) هذا المثل الذي يحمل بين طياته معاني سياسية ضخمة، أراد الكاتب أن يبث إلى القارئ.

ويبدو لنا من خلال الرواية أن المؤلف كان مقتنعا بالدور المحدود للشيوعيين في الثورة التحريرية، حيث أنهى وجودهم بانتهاء زيدان وجنون اللاز، فالكاتب أراد من خلال هذا الموقف أن يتجاوز الواقع المادي إلى واقعية فنية، لكنها مثالية لزيدان وجماعته التي أثرت الموت مع الثبات على مبدأ.

فبدت واقعية متطورة من زاوية نظر المؤلف في إعلان شأن (زيدان) من خلال تزكية قيم الوفاء للقضية والقناعة والموت في سبيلها.

وبالرغم من انتماء زيدان للحزب الشيوعي الجزائري إلا أنه لم يكن في تمرده يمثل حزبا أو قوة جماعية بل قوة روحية فردية أوجدها الكاتب ليعبر عن آرائه ومبادئه هو في حد ذاته.

الدلالة الثقافية: ويمكن أن نلمس هذه الدلالة في كون كل شخصية من شخصيات الرواية لها حظ من التدين، وهي صفة أصيلة في الإنسان الجزائري، وقد بدت هذه الصفة عند كافة أشخاص الرواية مع تفاوت طبيعي بينهم، وحتى عند زيدان نفسه، الشخصية الشيوعية حيث نجده يكن احتراما كبيرا للدين الإسلامي ولم يواجهه مباشرة بل أنه يحتفظ بعاطفة دينية دفينة تربطه بالإسلام ورموزه الأساسية، وإن حاول في الظاهر صدها وإخفائها وعدم التقيد بها، ويظهر إحساسه الديني جليا في أقواله التي كانت أكثر حضورا عند مواجهة الموت كقوله (الله يرحم الشهداء) (10)

ورغم امتلاك زيدان لحظ من التدين الذي لا يمكن أن ينعدم في كل الظروف إلا أننا نجده مقتله يردد نشيد الأممية بدل الشهادة التي يختم بها كل مسلم حياته إذ ردد قائلا:

"انهضوا معذبي الأرض
هبوا أيها المحكوم عليكم بالجوع
فالحق يدمدم في فوهات براكينه
إنها حمم النهاية" (11)

فهذا لا ينسجم مع الحقيقة الكامنة في نفسه، إذ لم يبد منه ما يدل على إلحاده حتى لا يردد الشهادة عند موته، وربما تعمد المؤلف ذلك لأنه خشي من أن يكون في ذكر زيدان للشهادة دلالة على تراجعه عن الأيديولوجية الشيوعية التي أراد أن يموت مخلصا لها.

كما نجد شخصية (اللاز) جاءت حاملة لمسحة واقعية، وقد جاءت عملية الخلق الفني أقرب ن المنطق، حيث استطاع الروائي أن يطور الحدث الروائي عبر هذه الشخصية ويعدها من الشخصيات الوحيدة التي انخرطت في الثورة دون حسابات ايديولوجية أو حزبية، وقد أهتم به الكاتب اهتماما كبيرا حتى أنه عنون روايته باسمه. و في المقابل نجد شخصية (حمو) لتي تعلمت الأشياء بكل تعقيداتها من خلال حاستها الطبيعية التي شحذتها التجربة الحياتية القاسية، فرغم بساطته وأميته إلا أنه

استطاع أن يفرق بين متعلم تهمه الثورة كقطية وطنية، ومثقف عضوي تشكل هذه الثورة جزء من كيانه.

ونجد المؤلف من خلال تصويره لشخصياته يلح على الشرط الملحمي الذي يهيكل به روايته، حيث صور لنا زيدان وكانه مرآة تعبر عن العجز القاصر عن إدراك حركت الواقع التاريخي، ونعتقد أن وطار يتمتع بحس ورؤية تاريخية ثاقبة، فرغم إعطائه لشخصية زيدان صفة البطولة والمثالية المطلقة إلا أنه ظل متمسكا بحاسته المتشككة في الأيديولوجية الماركسية وشرعية استمرارها وتواصلها، سواء داخل جبهة التحرير أثناء الثورة أو بعد الاستقلال.

وقد انطلق وطار في روايته هذه من الفكرة التي ترى أن المثقفين هم الذين يمثلون الطليعة التي تخطط وتضع الأهداف المبنية على المبادئ الأنسانية ونلمس ذلك في سلوك شخصياته وأبعادها الفكرية، حيث نجد وطار في هذه الرواية مشبعا بالثقافة الأغريقية ونلمس ذلك في استحضاره لأسطورة أوديب الذي ضاجع أمه، حيث جعل (بعطوش) في روايته يضاجع خالته، إلا أن الفرق بينهما أن الأول جاء ذلك عن غير علم في حين نجد بعطوش أتى ذلك عن علم ودراية.

وبالتالي نجد وطار متعدد الثقافات: شعبية، اسلامية، اغريقية...

3/- الدلالة الحضارية: وتتجسد هذه الدلالة في سلوكات بعض الشخصيات التي تبدو تارة عادية إلى حد ما وتارة شاذة إلى حد العقدة، وتتصف في الثانية بالقسوة المتجاوزة للمعقول فتنعدم فيها العاطفة انعداما يكاد يكون مطلقا من مثل ما أقدم عليه بعطوش مع خالته حيث لم يحترم دم القرابة فأضاف إلى خيانته مع الجيش الفرنسي خيانة أخلاقية لا يقدم عليها أي إنسان(12).

فهذا السلوك الذي قام به بعطوش، سلوك همجي لا يجوز أن يصدر إلا عن شخصية معقدة تحمل أثقالا من الأوهام والأحقاد ... فبعطوش هنا يتجرد من كل عاطفة دينية كما يتجرد من كل عاطفة وطنية، حيث نجد لا يتمتع بحس حضاري ولا ديني ولا حتى عاطفي بسيط، فهو مجرد حيوان مفترس لا يختلف عنه في التفكير ولا في السلوك ولا في الغريزة. والأغرب من كل هذا و الأعجب أن الرواية تجعل - في نهايتها – من هذا المجرم الهمجي فدائيا كبيرا ومجاهدا عظيما.

4/- الدلالة الإنسانية: ونجدها متجسدة في التحديدات التي وضعها الطاهر وطار للعديد من الشخصيات كزيدان والشيخ... وإلى النتيجة الحتمية التي ترى أن الذي يحدد وجهة الثورة ليست القوى المرتبطة في الواقع الإقطاعي، ولا القوى المرتبطة بالاستعمار، بل الذين يبنون المستقبل هم الفقراء الذين يناضلون من أجل تجسيده،

ويعكس هذا الواقع المشوه المستوى الطبقي للشخصيات الروائية. فالحدث لم تصنع كل شرائح المجتمع الجزائري كما هو الواقع (علماء من الحركة الإصلاحية، رجال من الحركة الوطنية، فلاحون...) بل صنع سكيرون منبوذون اجتماعيا على راسهم " اللاز" " اللقيط الذي ارتقت به هذه الوضعية المرفوضة إنسانيا أن يوصف بابن الجميع (ترى من يكون أبوه، لاشك أنه ابن جميع الأشقياء).(13)

وقد عكست هذه الشخصية - بقوة وعنف- الانفعالات والرغبات الإنسانية المقهورة الموشاة بالمقامات الكلامية المتباينة (لقد أرادوه لقيطا ولم يكن لهم ما أرادوا، وأراد له أن يكون شرعيا فكان له ما أراد). (14)

وبهذا يبطل القول أن (اللاز) بلغ حدا كبيرا من النمذجة الفنية، فهو كما صوره المؤلف (مكابر معاند وقح متعنت لا يهزم في المعركة وإن استمرت عدة أيام).(15)

كما نجد وطار قد حاول أن يغوص في أعماق شخصية بعطوش ويقدمها لنا في صورة معبرة عن التناقضات الداخلية للسلوك الإنساني وما تحمله من تشويهات عميقة، وهذا لتأكيد حالة الانشطار النفسي، والتمزق الذي تعيشه الذات المحبطة في مواجهة مصيرها وخياراتها، وقد قدم لنا الكاتب هذه الشخصية في صورة متوحشة تمارس النذالة والقسوة فتتحول الفضاعة والعنف بديلا عن عظمة الإنسان وتفوقه. وبذلك يزيد الروائي من تعميق اشمئزاز القارئ لهذه الشخصية الخائنة، التي تغلبت غرائزها العدوانية على كل أحاسيسها النبيلة.(16)

ليطل علينا (قدور) بشخصيته المتزنة عاطفيا ودينيا وأخلاقيا، تحمل في طياتها مضامين إنسانية تجعلها ترقي بالعواطف البشرية، فرغم حبه (لزينة) إلا أنه اكتفي بمغازلات بريئة، حتى أنه التمس من أمه أن تخطبها له على الأصول الاجتماعية المعروفة في التقاليد الجزائرية، فقدور من الشخصيات الروائية التي تمثل الواقع الصادق للمجتمع الجزائري، أو على الأقل السلوك التقليدي المحتشم الذي يؤيده أي إنسان مهما كان انتماؤه. (17)

ونجد إلى جانب هذا موقفا إنسانيا اتخذه زيدان حين رفض اقتراح ابنه (اللاز) لقتل الضابط الفرنسي، حيث نلمس خوف زيدان على ابنه رغم أنه ابن غير شرعي، فهو لم يرفضه رغم كل ما عرف به اللاز من صفات سيئة. و في المقابل نجد الابن ينصاع لأمر أبيه دون تردد.

وإذا كان وطار قد نجح في تفادي المباشرة بمحاولة التقليل من السرد والوصف، والتنويع في الأشكال الأخرى، فإنه قد وقع أحيانا في هذه المباشرة حتى في الحوار الخارجي منه والداخلي على السواء، فمما ورد في ذهن زيدان حول نوعية التركيبة

البشرية للمجاهدين ما يلي: (لو كانوا كلهم عملا... لكنت اعرف كيف اخاطبهم ، أما وهم خليط ... فلن يتصوروا ابداما اريد أن يتصوروه ... انني احرب من مواجهة الحقيقة ...) (18)

ويمتد الحوار على هذا النحو إلى أن يصل نتيجة هذه الأفكار المباشرة، وهي (أن على هذه الحركة (يعنى الثورة التحريرية) أن تتبني الصراع الطبقي من الآن وإلا بقيت مجرد حركة ...الخطر كل الخطر أن يحولها الاستعمار إلى صالحه فيعلن عن انتمائها ليخلق الوطن بين أيدي العملاء..) (19)

ومما سبق نلاحظ أن الأشكال الرمزية التي أعتمدها وطار لم تفلح في إخفاء الطابع الايديولوجي السياسي الذي يغلب على هذه الرواية التي ظهرت قوية ناضجة متميزة في الرواية الجزائرية والعربية على السواء، حتى أن كاتبها لم يستطع تجاوزها فيما تلاها من رواياته.

التهميش :

1- ينظر : عمر بن قينة : في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص، 231، 232 .
2- ينظر : واسيني الأعرج : الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص،41 .
3- الطاهر وطار : اللاز : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1981، ص، 206 .
4- واسيني الأعرج : الطاهر وطار وتجربة الكتابة الواقعية، ص، 42 .
5- محمد مصايف : الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والإلتزام ، الدار العربية للكتاب، 1983، ص، 34 .
6- إدريس بوذيبة : الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، 2000، ص، 64
7- واسيني الأعرج : الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية، ص، 39 .
8- ينظر : ادريس بوذيبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ص، 65 .
9- الطاهر وطار : اللاز، ص، 257 .
10- م ن : ص، 9، 10، 142، 270.
11- م ن : ص،271 .
12- محمد مصايف : الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام ، ص، 53.
13- الطاهر وطار : اللاز، ص، 53 .
14- الصميلي يوسف "رواية اللاز للطاهر وطار" ، مجلة الفكر العربي، ع 26، بيروت، 1982، ص، 205 .
15- الطاهر وطار : اللاز، ص، 13.
16- ينظر : ادريس بوذيبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ص، 66، 68 .
17- عبد المالك مرتاض، عناصر التراث الشعبي في اللاز، ديوان مطبوعات الجامعية، الجزائر، 1967، ص، 56، 57.
18- الطاهر وطار : اللاز، ص، 161.
19- م ن، ص، 162 .